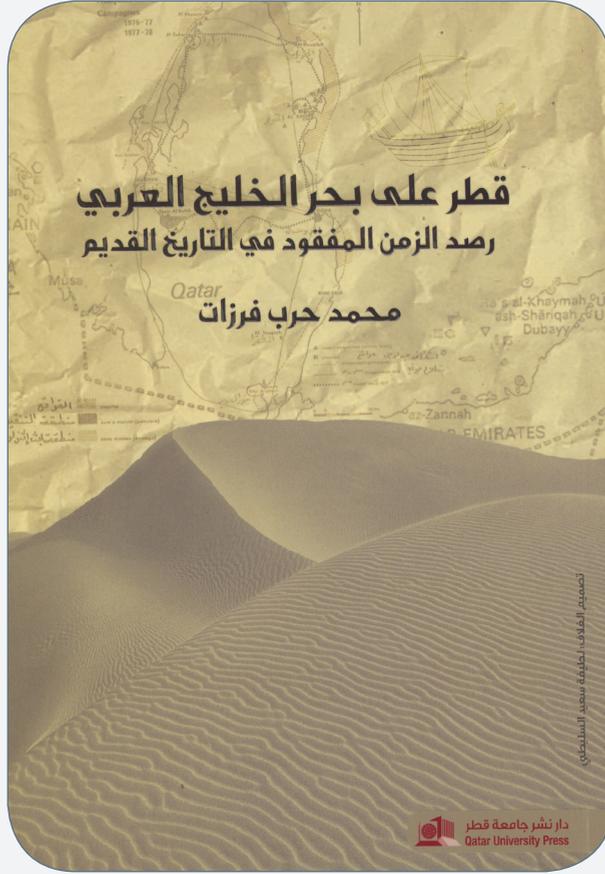


مراجعات

قطر على بحر الخليج العربي رصد الزمن المفقود في التاريخ القديم للدكتور / محمد حرب فرزات (*)



مراجعة: أ.د. عبدالله بن عبدالرحمن العبدالجبار

Department of History - College of
Humanities and Social Sciences -
King Saud University

قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية
والاجتماعية - جامعة الملك سعود

aajabbar@ksu.edu.sa

يتناول الكتاب تاريخ قطر والخليج العربي والشرق الأدنى وحركة الكشوف الجغرافية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث. ويتكون الكتاب من أربعة فصول وقائمة بالمراجع ومجموعة من الخرائط والصور.

وشمل الكتاب موضوعات متفرقة بحثت في تاريخ قطر والخليج العربي والمناطق المجاورة في الهند وإيران وسوريا والعراق، وتركز الاهتمام كثيرًا على تجارة الشرق الأدنى وتبادل السلع وحركة التبادل التجاري منذ العصور القديمة حتى القرن الثامن عشر الميلادي. وتتبع الكاتب الكتابات القديمة في بلاد الرافدين وسوريا، والكتابات الكلاسيكية والإسلامية والنقوش في مسعى لإثبات قدم تاريخ قطر.

- أشار الباحث في المقدمة إلى أهمية التركيز على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية القديم وعدم إغفالهما عند دراسة تاريخ الشرق الأدنى والاقتصار على العصر الجاهلي فقط (ص ١٤-١٧). يركز الكتاب في معظم الصفحات على التجارة العالمية وأهمية دراسة تاريخ الخليج العربي وتجارته ضمن النظام التجاري العالمي الممتد بين بلاد الرافدين وسوريا والهند، وأنها تشكل منظومة واحدة. (ص ١٩)

- ركز الفصل الأول على جغرافية شبه جزيرة قطر من

حيث طبيعة الأرض وموقعها ومواردها الطبيعية، إضافةً إلى النباتات والحيوانات التي تأقلمت مع مناخ المنطقة، والسكان الذين استوطنوا المنطقة على مدى العصور. كما ركز على المحيط الجغرافي لقطر في الخليج العربي والبحر المتوسط وشبه القارة الهندية في العصور القديمة والإسلامية والحديثة.

- وتناول هذا الفصل الصراع الدولي والمخططات الإمبريالية لخلق صراعات في العالم العربي وتمييع القضية الفلسطينية، والتركيز على التوسُّع الغربي منذ القرن السادس عشر، والهيمنة الغربية الحالية وفرضها من أمريكا وحلفائها الغربيين، والعلاقات الاقتصادية للشرق الأدنى مع دول المحيط الهندي. وأكد أهمية المحيط الهندي في الصراعات القادمة، وأن لهذا المحيط أهمية كبرى للعرب، إذ تقع عليه معظم الدول العربية - (١٤) دولة (ص٧٧)، وأنه المحور المستقبلي في الصراع الدولي الذي سوف يطفئ على البحر المتوسط، وذلك بسبب عمقه في خطوط التجارة العالمية والثروات الهائلة والكثافة البشرية على سواحله والمناطق المحيطة به، ولقربه من الصين التي تسعى إلى السيطرة عليه. ويرى أن الجزيرة العربية بذراعيها المائين البحر الأحمر والخليج العربي تعدُّ إحدى أهم مناطق الصراع القادم بسبب الموقع الإستراتيجي والموارد النفطية (ص٧٦-٧٧). وينطلق الكاتب من العمق التاريخي في الصلات بين الهند والجزيرة العربية في العصور القديمة والإسلامية

في أهمية إحياء الدور التجاري الذي كان سائداً قبل الاستعمار الغربي لهذه المناطق (ص ٨٢-٨٤).

- خصص الفصل الثاني لبحث الترابط القديم بين قطر ودول المحيط الهندي والشرق الأدنى، ودور الخليج العربي في خلق وحدة اقتصادية منذ العصور القديمة حتى القرن الثامن عشر الميلادي. ويستشهد في ذلك بالأسماء التي أطلقها السومريون: البحر الأعلى (البحر المتوسط)، والبحر الأسفل (الخليج العربي) في الربط بين هذه المناطق. وينصبُّ تركيز الفصل على دور الخليج العربي في العلاقات الدولية في هذه العصور. وقد جعل الكاتب قطر نقطة التواصل الملاحي في الخليج العربي عبر مختلف العصور، خصوصاً العصور القديمة بين ديلمون ومجان وملوخا (ص ١٠٨-١٠٩)، فتناول التبادل التجاري بين بلاد الرافدين وسوريا والهند مستشهداً بالسجلات المسمارية من المدن السومرية وبابل وماري، ودور الخليج العربي وسيطاً في التجارة الدولية.
- وفي الفصل الثالث تحدّث عن موقع قطر على طرق التجارة بين ديلمون ومجان، وشهادات الكتابات الكلاسيكية منذ حملات الإسكندر المقدوني حتى العصر الروماني، مع التركيز على اسم قطر وحويلة في هذه الكتابات. وأشار إلى البضائع التجارية التي اشتهرت بها قطر في مصادر تاريخ المنطقة على مدى العصور، مثل مصايد اللؤلؤ وصناعة الثياب القطرية والرماح القطرية (الخطية) التي ينسبها إلى موقع قطر.

- وركز الفصل الرابع على التأكيد على عراققة اسم قطر في الكتابات اليونانية والرومانية، خصوصاً كتاب دليل الطواف حول البحر الإريثري، الذي كتبه أحد الملاحين في القرن الثاني الميلادي عن التجارة وموانئ البحر الأحمر والخليج العربي خلال الرحلات التجارية بين مصر والهند. ويرى الكاتب أن اسم قطر برز بعد زوال حضارة ديلمون في القرن السادس قبل الميلاد، وأنه امتد ليشمل مناطق من الساحل الشرقي للجزيرة العربية (ص ٢١٥).
- ويذكر الفصل الرابع أن أول اسم لقطر عند الكتاب الكلاسيكيين ورد عند بلينيوس (ت: ٧٩م) باسم كاثري (Catharai) الكاثريين (١٦٤-١٦٥م)، ثم عند بطليموس الجغرافي (ت: ١٦٠م) باسم كاتارا (Catra). وقد ركز الكاتب على كتاب دليل الطواف حول البحر الإريثري (القرن ٢م) حيث يرد اسم كاتارا وحويلة، والأخيرة اسم لموقع حالي في شمال جزيرة قطر مقابل البحرين. كما يرى أن موقع الخط في قطر هو المصطلح الجغرافي الذي عُرفت به الأحساء وشرق الجزيرة العربية في العصر الإسلامي، وأن قطر أكبر مدنها كما يذكر ياقوت الحموي. ويشير الكتاب إلى أهمية "بيت قطراية" منذ القرن الرابع الميلادي بوصفه أحد أهم الأسقفيات التي برزت في المنطقة والتي امتد نفوذها ليشمل قطر والبحرين ومناطق على الساحلين العربي والفارسي على الخليج العربي (ص ٢١٢-٢١٤).

الملحوظات العامة:

- بالغ الكاتب في ربط السجلات المسمارية بكلمة قطر، التي اشتقها من كلمة أكادية تعني "دخان النحاس" (ص ٢٢، ٢٠٢-٢٠٦). وهذا فيه مبالغة للفرق الشاسع الذي يمتد لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولا تسنده الأدلة المسمارية أو الأثرية التي لم تربطها بالمنطقة.
- يذكر أن الملك نابونيد أقام في تيماء من عام ٥٥٦-٥٣٣ ق.م، وهذا خطأ تاريخي، حيث إن الدولة البابلية سقطت عام ٥٣٩ ق.م، والصحيح أنه أقام في المدينة تقريباً بين ٥٥٢-٥٤٢ ق.م.
- يلحظ إغفال مصطلح "الجزيرة العربية" في فصول الكتاب، والتركيز على بلاد الرافدين والبحر المتوسط، وهذا غير مبرر، خصوصاً أن الجزيرة العربية هي العمق التاريخي لشبه جزيرة قطر؟ فقطر هي جزءٌ من منظومة الجزيرة العربية وشرق الجزيرة تحديداً، ومن ثمّ فهي جزءٌ لا يتجزأ من منظومة المنطقة السياسية والاقتصادية، لكن قلة مواردها الطبيعية أدّى إلى ضعفها وانضوائها تحت الكيانات السياسية التي شهدتها المنطقة عبر العصور.
- يُغفل الباحث ذكر اسم المملكة العربية السعودية في الكتاب، واستعمل اسم شرق الجزيرة العربية عند الاستشهاد بالأمثلة التاريخية، مع ذكره للدول الأخرى مثل الكويت والبحرين والإمارات.
- عدم الاستشهاد بأي شواهد تاريخية من المواقع الأثرية

في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية خلال مختلف العصور، في حين يستشهد بشواهد من الدول المجاورة، مثل أختام ملوخوا من الكويت، والأوزان الهندية من البحرين، متناسياً قرب المواقع التاريخية في المنطقة الشرقية إلى قطر، مثل: ثاج، وتاروت، والقطيف، والظهران، وغيرها، التي وُجِدَت فيها نماذج مشابهة من هذه القطع.

- لا يُعرّف الكلمة عند أول ذكر لها، مثل ملوخوا (Meluhha) برغم الإشارة إليها عشرات المرات سابقاً (ص ١١٠). وكذلك عدم الاستقرار على مصطلح واحد وتوحيد الأسماء المستخدمة في الكتاب. وعدم التقييد بالمصطلح الدارج بين الباحثين في كتابة الاسم، وهو ملوخوا. فقد استعمل ثلاث صيغ في كتابتها: ملوخوا، وملوخوا، وملووحة (ص ١١٠-١١١، ١٨١). وهذا ينطبق على اسم ديلمون التي أحياناً يكتبها تيلمون.

- يكرر التعريف بأسماء الأماكن في مواضع كثيرة من الكتاب، مثل: مجان، عمان، والهند؛ وملوخوا: الهند/ بلاد ما وراء النهر؛ وديلمون: الخليج/ الهند (ص ١٢٠-١٢١)، والمنهج العلمي يقتضي التعريف في المرة الأولى فقط. والاضطراب في تحديد مواقعها كذلك، مثل تحديد مكان ملوخوا أو مجان، إذ يذكر آراءً متناقضة، فأحياناً في عُمان وأحياناً في الهند (ص ١١١-١١٢) برغم مضي زمن طويل على إجماع معظم الباحثين على ربط مجان بعمان وملوخوا بالهند.

- يلحظ على الكتاب التركيز على مدن ودول بلاد الرافدين،

مثل: أور، ولارسا، وآكاد، ونيبور، وآشور، وبابل، إضافةً إلى ممالك بلاد الشام خصوصاً مملكة ماري، أما الخليج فهو يقتصر على ديلمون ومجان بصورة عامة. ويفضل الكيانات السياسية التي شهدتها المنطقة مثل مملكة الجرهاء التي لا يذكرها في الكتاب، بالرغم من تركيزه على تاريخ قطر في العصر الهلينيستي، وقرب عاصمة الجرهاء من قطر، حيث تعد ثاج المركز الرئيس لها.

- ذكر أن استعمال الجَمَل بدأ في العصر الهلينيستي (ص ١٥٦) أو القرن الخامس قبل الميلاد، في حين أنه يعود إلى العصر الآشوري كما وثق في حوليات الملك شلمنصر الثالث عند صراعه مع العرب في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م. أي القرن التاسع قبل الميلاد، عندما جند الملك جنديبو ألف عربي مع جمالهم للمعركة، إضافةً إلى الشواهد الكثيرة من حروب الآشوريين مع مملكة أدوماتو منذ القرن التاسع حتى السادس قبل الميلاد.
- يذكر الكاتب أنه وفقاً لتقارير البعثة الفرنسية فإن موقع حويلة يعود إلى القرنين ١٧ و ١٨ الميلاديين، "ولم يُعثر على آثار تعود إلى العصور القديمة" (ص ١٧٦)، ولكنه ينسب اسم الموقع إلى قبيلة هاجرت في الألف الأول قبل الميلاد من جنوب الجزيرة العربية مستشهداً ببعض النقوش والكتابات الإسلامية حول انتشار القبيلة في الجزيرة العربية، وأن جماعات منها استوطنت قطر.
- تكرر الاستشهاد بالكتّاب الكلاسيكيين مثل بلينيوس وبطليموس ودليل الطواف، والكتّاب المسلمين مثل الحموي

والبكري، والرحالة الأجانب مثل نيبور عند الحديث عن التجارة في الخليج، والتركيز على أن معظم التجارة مع قطر. ولكن لا يمكن الجزم بصحة هذه النسبة في كثير من النصوص، خصوصاً مع غياب الأدلة الأثرية القطرية التي تسند هذه الروايات، فكثير منها يطلق على المنطقة وليس خاصاً بقطر.

- يركز الكتاب على تأصيل اسم قطر خلال العصور القديمة، وأنه قديم جداً ويرقى إلى العصور الأكادية من خلال ربطه لاسم قطر بكلمة دخان النحاس الأكادية، وكذلك ربط اسم حويلة بالاسم الحالي نفسه وأنه يعود إلى العصر الروماني، ويؤكد استمرارية هذه الأسماء منذ العصور القديمة حتى العصر الحالي، وليس لهذا ما يدعمه من الشواهد التي اعتمد عليها.
- هناك خلط في الحقائق التاريخية الخاصة بدور قطر في تجارة الخليج العربي، برغم عدم وجود آثار أو كتابات تؤكد ذلك، مثلما نجد عن ديلمون أو مواقعها الأثرية في تاروت والقطيف والظهران وغيرها من مواقع المنطقة الشرقية. وحتى دانييل بوتس الذي استشهد بكتابه كثيراً يرى أن مراكز ديلمون في المرحلة الأولى امتدت من بقيق إلى تاروت قبل انتقال المركز الرئيس إلى البحرين في الألف الثاني قبل الميلاد.
- فيما يخص العصور الحجرية، وخصوصاً العصر الحجري الحديث وحضارة العبيد (٥٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م)، فأقدم مواقعها في المنطقة الشرقية وليست في قطر، وكان بالإمكان

مقارنة معثورات واحة يبيرين والدوسرية وعين قناص بالمواقع الأثرية في قطر من هذه الفترة.

- يرمز بيت قطراية إلى إقليم كان مركزه دارين وضَمَّ مجموعة من الكنائس المحلية هي: دارين، وهجر، وسماهيح (المحرق)، والخط. وأول كنيسة تأسست في دارين عام ٤١٠م وعُقد فيها أول مجمع كنسي عام ٥٩٦م، والثاني عام ٦٧٦م لاختيار مندوب لتمثيل الكنيسة الشرقية، ومن ثم فلا يقتصر المصطلح على قطر الحالية، بل يشمل المنطقة.
- لا يختلف الباحثون في أهمية موقع قطر في الملاحة البحرية في الخليج العربي، ولكن أن تكون مركزاً رئيساً لتجارة النحاس وتصديره بين ديلمون ومجان وملوفا فليس ثمة ما يدعمه من الشواهد الأثرية.
- أحد أهم الملحوظات هو تكرار المعلومات نفسها في مختلف فصول الكتاب، سواء من حيث الاستشهادات أو تحليل الأسماء والمعلومات أو التصورات الخاصة بالتبادل التجاري بين قطر والعالم الخارجي، الذي فيه مبالغة كبيرة.
- لا أجزم ولكن يظهر أن بعض أجزاء الكتاب نُقلت من كُتب أو بحوث أخرى، وهذا ربما يفسر التكرار واختلاف استعمال المصطلحات بين دفتي الكتاب. علاوة على أن معظم مراجع الباحث واقتباساته اعتمدت على مراجع قديمة عدا القليل منها، خصوصاً ما يتعلق بالتنقيبات الأثرية في منطقة الخليج العربي.